أهمية ثغر جدة في النصف الأول
من القرن العاشر الهجري (١٦م)

للمؤلف
مصطفي محمد رمضان

القسـم الأول

أهمية ثغر جدة في النصف الأول
من القرن العاشر الهجري (١٦م)

—

اهتم المسلمون بإنشاء ثغر جدة في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان[١] في سنة ٢٦ هـ وبطلب من أهل مكة أنفسهم ، بدلاً من ميناء الشعبية ، الذي كان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل جدة على شاطئ البحر في الطريق إلى اليمن ، ولقد خرب القراصنة الأحباش جدة في عام ٧٠٢ م ، ولكن أعيد بناء المدينة في القرن العاشر الميلادي ، ورأت ازدهارا تجارياً ومعمارياً في العصر المملوكي .

(١) ويذهب عبد القادر بن فرج صاحب كتاب " السلاح والعدة في تاريخ جدة " إلى أن جدة كانت قبل ذلك ثغراً معتمداً على ما ذكره ابن جبير في رحلته من أنه رأى بها أثر سور محلق بها ، وما ذكره ابن فهد في كتابه : "إتحاف الورى بأخبار أم القرى" من أن بجدة أثر رسوم قديمة تدل على قدم اختطاطها وأنها كانت مدينة كبيرة زمن سيطرة الفرس وأن سلمان الفارسي رضي الله عنه وأهله سكنوا فيها لأنهم كانوا قوماً تجاراً وهم الذين بنوا سورها الأول وكان ماء البحر يدور حولها وهي يومئذ شبه جزيرة وسط لجة البحر .

ثم يقول ابن فرج عن سورها : " والمشهور أنه من بنيان الفرس إجمالا وأنهم لما بنوه أتقنوا بناءه جعلوا عرض الحائط عشرة أشبار وجعلوا فيه أربعة أبواب أحدها باب الدوحة في جهة الشام ، وباب المدبغة في جهة اليمن ، وكان عليه حجر أخضر فيه طلسم إذا سرق من البلاد شيء وجد بالغداة اسم السارق مكتوبا في الحجر ، وباب مكة في جهة القبلة ، وباب الفرضة مما يلي البحر ، وحفروا حول البلد خندقا عظيما في الوسع والعمق ، وكان يدور ماء البحر حول البلد وهي يومئذ شبه جزيرة في وسط لجة البحر "

---

(١) أنظر : عبد القادر أحمد بن فرج ، "السلاح والعدة في تاريخ جدة" مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٨ تاريخ دهلوي ص ٨ ، وأنظر أيضاً : أحمد الحضراوي ، الجواهر المعدة في تاريخ جدة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٧ دهلوى ص ٧_٨ .

ويذكر أيضـــا أن الفرس اســـتعدوا بتوفير المياه لأهلها في داخل البلد وخارجها فيقول : " ولما خافوا من ضـــيقة الماء عمروا ثمانية وثمانون صـــهريجا داخل البلد ومثلها خارجها ، وقيل ثلثمائة (ثلاثمائة) داخلها وثلثمائة خارج البلد "

ويذكر أن الفرس هم الذين "خرَّجوا أهلها واندرســـت وبقيت خاوية على عروشها " بسبب بعض الأساطير التي ذكرها ويمكن مراجعتها في نص المخطوط (السلاح والعدة في تاريخ جدة)الذي ألحقناه بهذا الكتاب كاملا .

ويذكر أيضا أنهم لما هجروها سكنوا ميناء سواكن السوداني وجزر دهلك في مقابلة شـــواطئ أرتريا الآن ، ثم اســـتوطنها الأعراب من كل مكان ومن اليمن ومن شراكسة مصر .

وقد اكتسب ميناء جدة مع مرور الزمن أهمية دينية واقتصادية وإستراتيجية إلى أن أصـــبح من أهم الثغور في الجزيرة العربية والبحر الأحمر بعد ســـقوط بغداد عاصمة العباسيين في يد المغول لأن جزءاً كبيراً من التجارة الشرقية التي كانت توجه إلى بغداد عبر البصرة بدأت تتحول إلى مصر عبر البحر الأحمر مروراً بميناء جدة .

وقد حظي بهذه المكانة لأنه ميناء أم القرى مكة المكرمة ، ومفتاحها إلى البحر الأحمر والعالم ، فإليه يصـــل حجيج بيت الله الحرام الذين يركبون البحر ، ومنه تزود الحجاز وقلب الجزيرة العربية بالمؤن والبضـــائع من شـــتى بقاع العالم ، وغدت لجدة أهمية تجارية على مر الأيام فأصـــبحت مركزاً من مراكز تجارة العالم في العصـــور الوسطى تلتقي فيها السفن الآتية من الهند وشرق أفريقيا بالسفن القادمة من مصر ، فكانت أغلب السفن تفرغ حمولتها في جدة وتعود مسرعة إلى الهند قبل فوات موسم الرياح ، ثم تقوم سفن أخرى بحمل هذه البضائع إلى السويس حيث تجد طريقها عبر مصر إلى أوروبا .

وفى عام ١٤٥٣ م ـــ فتح العثمانيون القسطنطينية وأغلقوا البسفور مما حال دون وصــول التجارة من مدن البحر الأســود التي كانت نهايات لطرق التجارة البرية عبر أواسط آسيا عن طريق الحرير وهكذا لم يعد مفتوحاً غير طريق البحر الأحمر كطريق آمن فاستفاد كل من العرب والمماليك من احتكارهم لفوائد تجارة البهار[٢] .

وقد عرف الحكام المســلمون عبر العصــور الإســلامية لميناء جدة الأهمية الدينية والاقتصادية فاهتموا بعمارته وتحصينه .

وفى العصر المملوكي تطلع سلاطين المماليك في مصر إلى الاهتمام بحماية الحرمين الشــريفين وتأمين ســبل الحج والعناية بثغر جدة لأهميته ، فتدخلوا لتوطيد حكمهم في الحجاز ، ففي سنة ٦٦٧ هـــ حج السلطان الظاهر بيبرس وعين نائباً له بمكة يرجع إليه أشراف مكة في المهمات "ويكون الحل والعقد على يديه[٢] وهو شمس الدين مروان ، ومن تلك السنة استمرت هذه الولاية بمكة إلى آخر دولة قنصوه الغوري ، وكان يطلق على نائب السلطان المملوكي بمكة اسم "باش مكة " أو "باشا الترك"[٣]

) أنظر : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ. ص ٢٨٣ .

(٢) بطل منصب "باش مكة" منذ الفتح العثماني ، وصارت بعض اختصاصاته يقوم بها نائب جدة كما سيأتي بيان ذلك .

(٣) أنظر : عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، مصدر سبق ذكره. ص ٢١ .

(٤) أنظر: قطب الدين النهروالي ، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، على هامش كتاب : خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام" طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ص ١٥٣.

(٥) رأس الرجاء الصالح كان اسمه قبل هذه التسمية "رأس العواصف" وذلك لكثرة ما به من عواصف ، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه "رأس الرجاء الصـــالح" ، وذلك بعد أن نجح البرتغاليون في اجتيازه لأنه فتح باب الرجاء والأمل أمامهم في الوصــول إلى الهند . أنظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ص ٦٣٠ هامش ٤.

(٦) نجح البرتغاليون بقيادة فاسكو دي جاما في الوصول إلى الهند سنة ١٤٩٨م ، بفضل رئيس البحر الملاح العربي أحمد بن ماجد الذي أرشدهم إلى الطريق الصحيح ، وابن ماجد له مؤلفات قيمة في الملاحة بعضها فى المكتبة الأهلية فى باريس وبعضها في مكتبة لينجراد ، وغيرهما ، وقد نشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها المستشرق الفرنسي جبرائيل فران والمستشرق الروسي "تيودور شوموفسكي" وأيدوا جميعاً ما ذكره قطب الدين النهروالى في كتابه "البرق اليماني" من أن فاسكو دي جاما لم يتمكن من الوصول إلى الهند إلا بفضل أحمد بن ماجد الملاح الذي صاحبهم في الوصول إلى الهند مرشداً لهم .

أما جدة فقد عين المماليك بها حاكماً عاماً يسـمى "نائب جدة" ويقيم في مقر يطلق عليه "دار النيابة"أو"فرضة السلطان"[٤] يطل على ميناء جدة مباشرة لكي يشرف منه على الحركة التجارية العالمية .

ومنذ سنة ٦٦٧ هـ تحولت قافلة الحج المصرية إلى البحر عن طريق عيذاب ميناء مصـر على شـاطئ البحر الأحمر في مواجهة ميناء جدة ، ومن عيذاب يتجه الحجاج مباشرة على متن السفن إلى جدة وظل كذلك حتى سنة ٩٥١ هـ ، وكان حجاج مصـر يركبون السـفن في النيل من سـاحل مدينة الفسطاط إلى مدينة قوص ويعبرون الصـحراء إلى عيذاب ومنها يركبون السـفن إلى جدة ، وفي سـنة ٩٥١ هـ تحول الحجيج إلى ميناء السويس ، وهي أول سنة انتقل فيها المحمل إلى السويس (إبراهيم رفعت باشا . مرآة الحرمين ص٣٠٦-٣٠٨ ج٢)

وثمة نص ذكره المؤرخ قطب الدين النهروالى في كتابه : "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" فيه إشـارة إلى هاتين الإمارتين بمكة وجدة ، وذلك عندما تحدث عن أمر السلطان قايتباي في سنة ٨٨٤ هـ بغسل البيت الشريف من داخله ومن خارجه وغسل المطاف وذلك لرؤيا رآها قال :"فحضـر شـريف مكة وقاضـى القضـاة برهان الدين بن ظهيرة وباشـا الترك الراكز بمكة الأمير قايتباي اليوسـفي والأمير سـنقر الجمالي والدوادار الكبير الأمير جاني بك نائب جدة المعمورة .... وغيرهم .... وغسـلوا الكعبة الشريفة من داخلها .... ومن خارجها ... وسائر المطاف"[٥] .

وقد زار جدة مغامر إيطالي يدعى (لودوفيكو دي فارتيما **lodoveco de varthema**) في مطلع القرن العاشـر الهجري (١٦م) متنكرا في زي مملوك في قافلة سورية وزار المدينة ومكة ، وهو أول أوربي يصف الأماكن الإسلامية المقدسة ، وواصل الرحلة مع القافلة السورية إلى جدة فيقول : في يوم السبت ١٤يونيو ١٥٠٣ م = (٩٠٩ هـ) دخلنا ميناء جدة وهي مدينة غير محاطة بأسوار ، ولكنها محاطة بمنازل جميلة جدا كالطراز الموجود في إيطاليا ،

وهي مدينة تمتلئ بالحركة التجارية الواســـعة ، وبها كثير من الطوائف ، وعندما وصلت إلى المدينة دخلت مباشرة في جامع وأخفيت نفسي في جانب من هذا المسجد وظللت هناك لمدة لمدة ١٤يوما ، وطوال اليوم أظل مفترش الأرض ممدودا ومغطى بملابســي ، وطوال الليل أتأثر بشـــدة لأني كنت أعاني من ألم في المعدة والجســم ، ويتساءل التجار من يكون هذا فيرد الفقراء الذين يكونون بالقرب مني إنه رجل مغربي فقير لدرجة انه يموت جوعا وفي كل مساء عندما يحل الليل أتسلل من الجامع وأذهب لشراء بعض الطعام ، فأنا لا أتناول الطعام سوى مرة في اليوم ، وهذا أمر سيئ جدا ، وهذه المدينة تحكم بواسطة حاكم القاهرة وحاكمها واحد من اخوة بركات ، وهو سلطان مكة ، وهم تابعين في الحكم وخاضعين للسلطان الكبير في القاهرة .

والأرض هنا لا تنتج أي شيء وهناك فقر وندرة شديدة في المياه العذبة ، ولكن أنواع الضـــروريات موجودة ولكنها تأتي من القاهرة ومن أماكن أخرى ، ويوجد في المدينة عدد كبير جدا من المرضـــى ، وهم يقولون إنه نتيجة للهواء الســـيئ في هذا المكان .

والمـدينـة تحتوي على حوالي ٥٠٠عـائلـة ، ويوجـد في الميناء أكثر من ١٠٠سفينة كبيرة وصغيرة وبدأنا في الملاحة عبر البحر الأحمر ، وإنه لمن الواضح أن مياه هذا البحر ليســـت حمراء ولكنها مثل مياه أي بحر ، ولا يمكن الإبحار في البحر الأحمر ليلا ، والســبب في هذا وجود العديد من الجزر والصـــخور التي تكون السفينة عرضة للاصطدام بها فمن الصعب الملاحة أثناء الليل ، ومن الضروري أن يكون الشخص دائما في قمة السفينة لكي يرى الطريق والذي لا يمكن رؤيته بالليل . " (أنظر : أنجلو بيس ، جدة كمدينة عربية في القرن ١٩م)

ولا شك أن ملاحظات فارتيما عن جدة في كل تفاصيلها صحيحة ، وكذلك كل ما ذكره عن الملاحة في البحر الأحمر .

وفى مطلع القرن العاشـر الهجري (السـادس عشـر الميلادي ظهرت أهمية جدة في الدفاع عن الحرمين الشريفين والبحر الأحمر في وجه الأطماع البرتغالية فعمل سلطان مصـر يومئذ الأشـرف قانصـوه الغوري (٩٠٦ ـــ ٩٢٢هـــ) على تقويتها وبناء الاستحكامات اللازمة للدفاع عنها .

ذلك أن البرتغاليين نجحوا في عامي ٩٠٣ / ٩٠٤ هـــ = ٩٧/١٤٩٨م في الالتفاف حول أفريقيا مروراً برأس الرجاء الصالح [٦] وتمكنوا بذلك من الالتفاف حول العالم الإسـلامي تحدوهم رغبة انتقامية امتزجت فيها الدوافع الاقتصـادية بالعوامل الدينية التي كانت تدفعها روح صـليبية جارفة جعلت المسـيحيين البرتغاليين أكثر تحمساً وشـراسـة في مطاردة المسـلمين والانتقام منهم في عقر دارهم ، وازدادت هذه الرغبة تأججاً وضراوة وعنفاً عندما نجحوا في الوصول إلى الهند[٧] سنة ١٤٩٨م .

---

(٦)أنظر: قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني فى الفتح العثماني ، طبعة دار اليمامة بالرياض ص ١٨-١٩ ويحي بن الحسين ، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ص ٦٣٠ـــ ٦٣١ هامش ٥ ، ود. أنورعبد =العليم "الفوائد في أصول علم البحار والقواعد" لأحمد بن ماجد ، بحث نشر في مجلة تراث الإنسانية ، المجلدات الخامس عدد ٤ ص ٢٧٤ ، وكذلك لنفس المؤلف كتاب : ابن ماجد الملاح من سلسلة أعلام العرب رقم ٦٣ ، وكذلك يقرر هذه الحقيقة المؤرخ الإيطالي الرحالة **Angel Pesce** في كتابه الذي= = نشره عن جدة في عام ١٩٧٧ بعنوان : **Jeddah Portrait of an Arabian City** من أن أحمد بن ماجد هو الذي دل فاسكو دي جاما على الطريق إلى الهند

.

(٧) أنظر: د. عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٩، الجزء الأول ص ٩٤.

(٨) عبر عما نويل ملك البرتغال (١٤٩٥-١٥٢١م) عن أغراض الحملة الأولى في خطبة طويلة جاء فيها "أن الغرض من إكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق".

أنظر: د. السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤ ص ٤٦-٤٧ .

(٩) جزيرة سوقطرة أو (سقطرة) تقع بالقرب من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى الشرق من عدن ، وهي جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية ولكن لها أهمية إستراتيجية

وشجعت البابوية في روما هذا المخطط الصليبي لغزو الإسلام في عقر داره ، وتورط بعض الباباوات فوصــفوا الإســلام في مراســيمهم بأنه طاعون[٨] ، وباركت البابوية عملية الانخراط في الحملات البرتغالية ، فكان البابا يعد المشــتركين في تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب ، وكانت سفنهم تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصلبان مرسومة يرافقها دعاة المسيحية المتعصبون لنشرها .[٩]

وبعد أن ثبتت أقدام البرتغاليون في الهند بدأوا يقومون بأشنع أعمال القرصنة فى المحيط الهندي ومدخلي البحر الأحمر والخليج العربي ويناوئون التجارة الإســلامية التي كانت في يد الحكومة المصرية ، فعملوا على مهاجمة السفن الإسلامية وإغراقها أو الاستيلاء عليها .

وكان يراود البرتغاليين أمل يرجون تحقيقه في أســرع وقت وهو الاتصــال بملك الحبشة المسيحي للتحالف معه لرسم مخطط لضرب القوى الإسلامية في البحر الأحمر والاستيلاء على (جدة) مركز المقاومة الإسـلامية والولوج منها إلى مكة لضرب العالم الإسلامي في أغلى مقدساته .

ومن ثم تســلل البرتغاليون في مياه البحر الأحمر ســنة ١٥٠٥ ، وفى ســنة ١٥٠٧ م استولوا على جزيرة سوقطرة [١٠] للسيطرة على مدخل البحر الأحمر .

وفى غضــون ذلك تنبه المماليك في مصــر لخطورة الغزو البرتغالي الذي اســتهدف حرمانهم من التجارة العالمية وبدا يهددهم فى مقد ســاتهم وأملاكهم ، ومن ناحية أخرى استجاب قنصوه الغوري لصيحات الاستغاثة من الزامورين حاكم قاليقوط (كاليكوت) أحدحكام الهند ، ومن حاكم مملكة (كجرات)في الشــمال الغربي من الهند وعاصمتها (أحمد أباد) وأهم موانيها " ديو " و" سـورات " وبعض التجارالمســلمين بالهند ، وحكام جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا.

وتركزت خطتهم تجاه هذا الغزو في تقوية حكمهم في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله وعلى الأخص ثغر (جدة) لأهميته في حماية الأراضي المقدسة الإسلامية ، وتحصين سواكن على الساحل الأفريقي ، وعدن في مدخل البحر الأحمر .

فأعد الأشرف قانصوه الغوري حملة بحرية بقيادة الأمير (حسين الكردي) سنة ٩١١هـ (١٥٠٥م) مهمتها تحصين جدة أولاً لتكون على استعداد لصد أي عدوان مفاجئ تتعرض له ، لتحويل جدة إلى قاعدة للحرب ضد البرتغاليين ، ثم تقوية ثغور اليمن والتوجه إلى الهند بعد تأمين خطوط العودة إلى مصر .

ويذكر ابن اياس أن جنود حملة (حسين الكردي) كانوا في مجموعهم من جنود الطبقة الخامسة أي من العساكر التي جددها الغوري في أيامه [١١] وكانوا يتكونون من المغاربة الذين يرأسهم أميرهم على المسلاتي "باش المغاربة" ومعهم "بعض أولاد الناس أي أبناء المماليك ، وبعض مماليك سلطانية والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمه وغير ذلك"[١٢] ومعهم فريق من البناءين والنجارين وكثير من العمال لإقامة التحصينات اللازمة ، كما سنرى فيما يلي ، واتجهت هذه الحملة المكونة من خمسين سفينة إلى ميناء جدة .

وعلى الرغم من أن السبب الرئيسي في إعداد هذه الحملة هو الغزو البرتغالي للبحار الشرقية ، كما ينص على ذلك ابن اياس وغيره من المؤرخين ، إلا أن صاحب كتاب "السلاح والعدة في تاريخ جدة" (١٣)يذكر سبباً آخر لهذه الحملة وهو : عمليات السلب والنهب التي قام بها عربان بنى إبراهيم (١٤) لحجاج بيت الله الحرام ونهبهم لمكة وجدة ولم يكن حينئذ على جدة سور وعلى الرغم من قرب صاحب كتاب السلاح والعدة من تلك الفترة التاريخية، إلا أنه لا يذكر شيئا عن الغزو البرتغالي للبحار الشرقية وتهديدهم لجدة ومكة .

وفي كتاب بدائع الزهور ، لابن إياس تفصيل أكثر للأوضاع التي حدثت بالحجاز وعلي الأخص في مكة ، وسببها تنازع أبناء الشريف محمد بن بركات شريف مكة المتوفى ، وهم بركات وأخيه الجازاني علي منصب الشرافة بمكة بعد وفاة والدهم فيذكر ابن إياس أن الجازاني حارب أخاه بركات ولجأ إلي عربان بني إبراهيم أشهر القبائل التي كانت تسكن بين مكة وينبع وجدة وكانت السلطات المصرية توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية ، فاستعان بهم الجازاني علي أخيه بركات متضامنين مع أمير ينبع، (يحيى بن سبع) ، وعاثوا في الأرض فسادا في كل من جدة ومكة .

---

(١٠) أنظر : ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة (١٩٦٠ـــ١٩٦٣) الجزء الخامس ص ٢٠٣.

(١١) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٨٤-٨٥ ، ٩٦ .

(١٢) مؤلف كتاب السلاح والعدة في تاريخ جدة ، هو الشيخ عبد القادر بن أحمد ابن فرج الشافعي من أهل جدة وخطيب مسجدها ، ولد بها ونشأ وكانت وفاته في سنة ١٠١٠ هـ وعاصر بداية العصر العثماني.

أنظر : مجلة المنهل المجلد السابع ص ٤٤٤ والأعلام للزركلى ج ٤ ص ١٦٢ ، وخلاصة الأثر للمحبى ج ٢ ص ٤٣٥ .

(١٣) بنو إبراهيم أشهر القبائل التي كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة ، وكانت السلطات المصرية توكل إليهم حراسة قافلة الحج المصرية في بعض مراحل الطريق وفيما بين سنة ٩٠٧ ، وسنة ٩١١هـ قام أعراب بنى إبراهيم بكثير من أعمال السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام متضامنين مع أمير ينبع يحيى بن سبع واشتد أمرهم في سنة ٩١١هـــ فأمر الغوري بإيقاف عملية الحج فى هذه السنة .

ومع ذلك لا نجد ذكرا لهذه الخلافات في كتاب السلاح والعدة ، ويبدو أن سبب ذلك الرهبة والخوف من الأشراف لأن لهم سطوة في جدة ومكة فلم يذكرهم ابن فرج إلا بالتوقير والاحترام والدعاء لهم.

على خلاف ما ذكره ابن إياس المصري في كتابه :

" **بدائع الزهور في وقائع الدهور** "

وعبد القادر الجزيري المصري صاحب كتاب :

" **درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة** "

فقد أفاض كل منهما في شرح الخلافات التي وقعت بين الشريف بركات وأخيه الجازاني علي منصب شريف مكة ، وتحالف الجازاني مع قبائل بني إبراهيم ، وأمير ينبع يحيى بن سبع ، وعاثوا في الحجاز فسادا .

فيذكر الجزيري مؤرخ قافلة الحج المصرية في كتابه (درر الفوائد) :

" أن الشريف الجازاني استولى على منصب الشرافة بالقوة من أخيه بركات وطرده من مكة وأن بني إبراهيم تحكموا في أهل مكة بالسلب والنهب والفساد وأن يحيى بن سبع هو رأس الأذى "

وابن إياس يشبه هذه الأحداث بالذي فعله القرامطة بمكة سنة ٣١٨ هـ زمن الخليفة المقتدر بالله العباسي ، وبسبب ذلك صدرت الأوامر في مصر بعدم حج النساء في عام ٩٠٨ هـ ويذكر ابن إياس مايلي عن هذه الواقعة :

" وكانت واقعة الجازاني من أبشع الوقائع وأنحسها وقد كادت مكة أن تخرب في هذه الواقعة عن آخرها ، وتقرب واقعة الجازاني من واقعة أبي طاهر القرمطي ومافعله بمكة من النهب وقتل الناس "

ونهب أموال التجار بمكة ، فكان الشخص الواحد من بني إبراهيم إذا غرس رمحه على باب بيت من بيوت مكة أو سرحة فيملك جميع ما فيها من قماش أو بضائع أو بهار ويخرج صاحب البيت بمفرده لا مال له ولا قماش وربما يقتلونه ، وقتل بعض الأمراء المجاورين بمكة منهم : تاني بك الجمالي أتابك العسكر بمصر الذي كان منفيا بمكة ، والناصري محمد بن جانم نائب الشام وأمه ، ونهب بيوتهم ، وقتل جماعة كثيرة من المجاورين ومن أهل مكة نحوا من ٧٠٠ إنسان ، حتى هرب غالب أهل مكة .

وكان لابد من عمل شيء حيال هذه الأحداث المؤسفة التي تهدد موسم الحج ، وتقضي على الأمن في جميع أرجاء الحجاز .

حملة أمير الحج قيت الرجبي سنة ٩٠٨ هـ :

وقد بعث الغوري بحملة عسكرية على وجه السرعة بقيادة أمير الحج الأمير (قيت الرجبي الأتابكي) في نحو ألف فارس غير الرماة والمشاة كما يقول ابن فرج في السلاح والعدة ، غير أن الجزيري مؤرخ قافلة الحج وابن إياس يذكران : أن عدد جنود هذه الحملة كانت ٦٠٠ جندي وذلك في سنة ٩٠٨ هـ وكانت مهمتهم قتال العربان وهم عربان بني إبراهيم في ينبع وزعمائهم ، ولما بلغهم وصول الأمير قيت الرجبي بعساكره خرجوا من ينبع هاربين وكتبوا إلي الأمير قيت بالعهود والمواثيق وأنهم راجعون عن الفساد ويسمعوا ويطيعوا من غير مخالفة ولا عناد.

فتوجه العسكر إلي مكة وقضوا مناسكهم وكتبوا للسلطان الغوري صورة العهود والمواثيق ، وأقاموا بمكة إلي أن جاءهم الجواب بضرورة أن يحلفوهم بالأيمان المغلظة فحلفوا ، وكان ذلك في بطن وادي علي ، وكانت أوامر الغوري تقضي بضرورة القبض على الجازاني بن الشريف محمد الذي هو سبب الفوضى التي حدثت في منطقة الحجاز ،

فلما لم يجده وهرب من وجهه ، قبض على أخيه ومنازعه في منصـــب الشـــرافة بركات وبعض إخوته وأحضـرهم معه إلى القاهرة ، وتوجهت حملة الرجبي بعدها عائدة إلي الديار المصرية .

لكن البغاة المذكورين نكثوا العهود والمواثيق ولم يوفوا بالعهود والمواثيق ونهبوا مكة وجدة مرة أخري وأظهروا في الأرض الفساد ، فأرسل السلطان الغوري إ ليهم حملة أخري فساروا إليهم ولم يرحموهم هذه المرة وقتلوهم في ينبع قتلا فظيعا وهتكوهم هتكا بليغا وغنموا منهم الغنائم ، وذهبوا بعد ذلك إلي مكة لحراستها وحمايتها .

لكن طائفة من البغاة جاءوا إلي جدة وأرادوا نهبها ، فاســتعد أهل جدة لقتالهم بقيادة التاجر محمد بن يوسـف القاري ، فجمع الناس الضـعفاء في مركب له كان راسـيا في ميناء جدة خوفا عليهم من البغاة ، ولما بلغ هؤلاء اللصــوص وصــول مدد من مكة علي رأسه الشريف بركات فروا هاربين (السلاح والعدة ص ١٥ .١٩) .

كما أن ابن فرج لا يذكر واقعة قبض أمير الحج قيت الرجبي علي شــريف مكة بركات وأخيه قايتباي وإحضـــارهما معه إلي القاهرة ، وهي الأحداث التي أفاض فيها كل من الجزيري وابن إياس ويبدوا أن سبب ذلك الخوف أيضـا من إظهار الأشـراف في موقف المهانين من المماليك فيتعرض لإيذائهم فيما بعد .

(الجزيري ، درر الفوائد ،ص٥٨٦)

حملة حسين الكردي :

ويغفل ابن فرج عن الأسـباب الرئيسـية التي دفعت الغوري إلى إرسـال حملة حسـين الكردي سـنة ٩١١ هـــ ويجعل سـببها الرئيسـي هو أعمال السـلب والنهب والتخريب التي قام بها عربان بنى إبراهيم ومن شايعهم .

وعلى الرغم من عدم إحاطة صاحب "السلاح والعدة" بالظروف والملابسات السياسية والعسكرية التي أحاطت بحملة حسين الكردي ، إلا أنه يعتبر أهم مصدر وصف لنا عملية تحصين جدة وبناء سورها على يد المصريين في عهد قانصوه الغوري ، كما وصف السور وصفاً دقيقاً لا نجده في مصدر سواه .

ونظراً لأهمية هذا الوصف ولأن هذا السور الذي بناه المصريون ومعهم بعض الحجازيين كان من أهم العوامل التي دفعت عن جدة عادية البرتغاليين أكثر من مرة فسنتناول هذا الوصف بشيء من التفصيل فيما يلي :

يذكر الشيخ عبد القادر بن فرج أنه بمجرد وصول (حسين الكردي) وجماعته إلى جدة شرع في عمارة السور التي تمت في تسعة أشهر (تمت في ذي الحجة من سنة ٩١٢هـ) ــ بما في ذلك الأبراج العالية ودار النيابة [١٥] في جدة وجامع الميناء ومصلى العيد .

ومما هو جدير بالذكر أن الشريف بركات شريف مكة ساعد في عملية بناء السور وملحقاته وساعد في نزع ملكية بعض البيوت التي كانت قريبة من السور منها بيت الصابوني ، وكان في جهة السور من ناحية اليمن ، وبيت الدهمي في جهة الشام وصار محل البيوت أثار تدل عليها ، كما حضر الشريف بركات بنفسه عملية البناء ، وكان في بعض الأيام يقف على العمارة راكباً فرسه "ليحضر لحضوره جميع من في البلد ويعينون بالحمل للمؤونة الكبير منهم والصغير والغنى والفقير والمأمور والأمير" [١٦]

(١٤) كان يطلق على دار النيابة التي هي مقر نائب جدة "فرضة السلطان" .

(١٥) أنظر : عبد القادر بن فرج "السلاح والعدة " مصدر سبق ذكره ص ٢٠_٢٢ .

وبذلك يتضح لنا أن عملية تحصين جدة شارك فيها مع المصريين الشريف بركات وأهل جدة على كل المستويات ، ولعل هذا هو السبب في براعة العمارة وسرعتها في مدة وجيزة . كما يشير إلى ذلك عبد القادر بن فرج .

وكان ارتفاع السور من الأساس حتى أعلاه (١٢ ذراعا) وطول محيطه من ناحية مكة واليمن والشام (٣٠٠٠ ذراع) وعرض جداره (أربعة أذرع)، أما الأبراج فكانت ستة أبراج ومحيط كل برج منها : (١٦ ذراعا) ستة عشر ذراعاً وارتفاعه من على وجه الأرض (١٥ ذراعا) خمسة عشر ذراعاً ، منها برج شامي تجاه الشمال وأخر يماني تجاه الجنوب وبرجان قبليان تجاه مكة ملاصقان لبابين يسمى أحدهما باب الفتوح وهو الأيمن والأخر يسمى باب النصر وهو الأيسر ، أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون في البحر (١٢ ذراعا) اثنا عشر ذراعاً . (١٧)

كما كان من تمام هذا العمل حفر خندق محيط بالمدينة من جميع نواحيها ، وبعد إتمام البناء وحفر الخندق زود المماليك المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربي ، وكان جملة ما صرف على عمارة السور وملحقاته (الأبراج ودار النيابة وجامعها ومصلى العيد وحفر الخندق) مائة ألف دينار غوري(١٨) **أنظر وصف السور في مجلة (B.S.O.A.S) مجلد ٢١ ج ٢ صفحات ٢٥٥ ــــ ٢٧٢ ومخطوط حسن القرى في أودية أم القرى الورقة ٩أ ، ٩ب) .**

---

(١٧) نص الشيخ عبد القادر بن فرج على أن هذا الذراع هو ذراع العمل وأضاف أنه أي ذراع العمل هذا ذراع ونصف بذراع النجار ، وبالرجوع إلى على مبارك في خططه وهو أهم مصدر تعرض لتقدير الأطوال ـــ تبين لنا أن ذراع النجار التي أشار إليها ابن فرج تبلغ نحو ٧٧,٥ سم فتكون ذراع العمل التي قدر بها ابن فرج أبعاد سور جدة هي ٧٧,٥ سم × ١,٥ = ١١٦,٢٥ سنتيمتر .

(١٨) أنظر عبد القادر بن فرج "السلاح والعدة " ص ٢٢ .

ويتضح لنا من عملية بناء سور جدة الحقائق التالية :

أولاً **: أن الشـــريف بركات ومعه جم غفير من أهل جدة على كل المســـتويات "الكبير والصـــغير والغنى منهم والفقير والأمير والمأمور" شـــاركوا مع المصريين في عملية بناء سور جدة في همه ونشاط .**

ثانياً **: أن المصريين هم أول من وضع حجر الأساس [١٩] في الاهتمام بثغر جدة وتقويته في عصر قنصوه الغوري بعد أن أصبح مستهدفاً من البرتغاليين .**

ثالثاً **: أن بناء الســـور كان قوياً بأبراجه العالية وخندقه المحيط به وتســـليحه الأمر الذي جعل من جدة صخرة تحطمت عليها أمال البرتغاليين في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني .**

رابعاً **: أن عملية بناء ســـور حول جدة لحمايتها بعد تســـعة قرون من تاريخ الإســـلام يعد رمزاً لانقلاب المســـلمين من عملية الهجوم إلى الدفاع حتى في عقر دارهم .**

وبعد أن أنجزت الحملة المصـــرية عملية تحصـــين جدة توجهت إلى الهند وأحرزت انتصارا جزئياً أمام الأسطول البرتغالي في مياه "ديو" في خريف عام(١٥٠٨م =٩١٤هـ) بالتعاون مع المسلمين الهنود ، إلا أن البرتغاليين سارعوا في تجميع قوتهم البحرية لمواجهة التحالف المصـري الهندي وأحرزوا نصـراً حاسـماً في ٣ من فبراير ١٥٠٩م ، وهى المعركة المعروفة في التاريخ بمعركة (ديو البحرية) ، وتلك المعركة التي أنهت عهداً من السيطرة المصرية على طريق التجارة البحري إلى الهند .

ويذكر زين الدين في كتابه (تحفة المجاهدين) أن الأسطول البرتغالي قام بمفاجأة الأسطول المصري من الخلف وحدثت معركة بحرية مفاجأة للأسطول المصري وحدثت خيانة من مالك إياس نائب ديو بدليل أن البرتغاليين لم يتعرضوا لسفنه بالحرب بل ركزوا هجماتهم على السفن المصرية ـــ مما يؤكد خيانة مالك أنه سلم للبرتغاليين كل الذين كان حسين الكردي أسرهم من البرتغاليين وحبسهم عنده ـــ كما أرسل للأسطول البرتغالي المؤن والذخائر حتى أن أمير البحر المصري أسرع بنفسه لاجئاً من ديو إلى سلطان كجرات خشية أن يسلمه أمير ديو للبرتغاليين (تحفة المجاهدين ص ٤١)

وقد تضاءلت بعد معركة ديو البحرية الأهمية التجارية للبحر الأحمر إلى حد بعيد ، تلك الأهمية التي ظل يتمتع بها طوال العصور الوسطى ، وانتقل مركز الثقل منه إلى طريق رأس الرجاء الصالح وساحلي أفريقيا الشرقي والغربي ذلك الطريق الذي غداً يزخر بخطوط ملاحية لأول مرة في التاريخ بين أوروبا وأفريقيا الشرقية والهند وغيرها من بلدان الشرق الأقصى حتى فتح قناة السويس للملاحة الدولية سنة ١٨٦٩م ، وعودة النشاط التجاري إلى البحر الأحمر وموانيه من جديد .

وبعد هذه الهزيمة التي منى بها المصريون في الهند نقل البرتغاليون معركتهم البحرية إلى مدخل البحر الأحمر في سنة ١٥٠٦ م بقيادة ألبوكيرك ، فاستولوا على جزيرة سوقطرى الواقعة في مدخل خليج عدن ، وحولها ألبوكيرك إلى قاعدة بحرية ، حيث أدرك أهميتها في التحكم في تجارة البحر الأحمر ، وهددوا اليمن والحجاز ومصر فتوغلوا في البحر الأحمر بقيادة (البوكيرك) وخربوا ميناء عدن في المحرم من سنة ٩١٩هـ /١٥١٣م . وفى أواخر صفر من نفس العام استولوا على جزيرة "كمران" [٢٠]

(١٩) أنظر: أحمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ، القاهرة سنة ١٣٠٥هـ ص ٥١

(٢٠) "كمران" جزيرة بالبحر الأحمر تجاه زبيد باليمن وهى حصن لمن ملك تهامة اليمن (ياقوت ـ معجم البلدان) كما أنها محطة بحرية هامة بين عدن وجدة . .

ثم خربوها وتركوها متجهين شـمالاً قاصـدين جدة ، وكانت خطة البوكيرك ترتكز على التقدم نحو ميناء مصـوع التابع لدول الطراز الإسـلامي ، ليتمكن من الاسـتيلاء على جزر دهلك المواجهة لجدة ثم يعد منها لمهاجمة جدة ومهد منها أيضـاً لإقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع إمبراطور الحبشة للقضاء على قوة مصر في البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية .

ولقد حاول البوكيرك مواصـلة مشـروعه الكبير وهو مهاجمة جدة فاتجه لذلك شـمالاً ولكنه جوبه بريح صرصر عاتية أجبرته على الرجوع قبل أن يصل إلى جدة ، فعاد يباشـر القرصـنة والتخريب فى موانى البحر الأحمر فأحرق السـفن الرأسـية في ميناء زيلع وعاد إلى عدن فضربها بالمدافع نحو أسبوعين [٢١].

وكانت القوات المصـرية قد عادت أدراجها إلى مصـر بعد أن ترك (حسـين الكردي) بعضـها في جدة وذهب إلى ميناء السـويس لبناء قوة بحرية يسـتطيع بها مجابهة الأسـطول البرتغالي المتفوق ، واتجه السـلطان الغوري إلى العثمانيين يطلب مساعدتهم في شراء ما يحتاجه من أخشاب وأدوات لصناعة السفن فأمر السلطان بايزيد الثاني (والد سليم فاتح مصر) بإرسال ثلاثين مدفعاً وثلاثين ألف سهم وأربعين قنطاراً من البارود ، وغير ذلك من عتاد الحرب هدية إلى مصر دون مقابل . كما أرسل نحو ألفين من البحارة العثمانيين للمسـاعدة في إعداد الأسـطول في ميناء السـويس والمشـاركة في الحملة البحرية المنتظرة على الهند برئاسـة (سـلمان الريس) الذي أطلق عليه ابن إياس (سلمان الرومي) ، والذي أصبح قبطاناً للأسطول المملوكي بعد إعداده [٢٢].

(٢١) أنظر : د. السيد مصطفى سالم "الفتح العثماني الأول لليمن" ص٧١ - ٧٤ .

(٢٢) المرجع السابق ج٤ ص ٢٠١

(٢٣) أنظر : ابن أياس "بدائع الزهور " ج٤ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

وبينما كان المصـــريون يعدون لبناء قوة بحرية في الســـويس وصـــلتهم الأخبار بأن البرتغاليين غادروا الهند بقيادة البوكيرك بحملة في فبراير ســــنة ١٥١٥م ، وتوجهوا إلى البحر الأحمر وكان هدفهم من هذه الحملة هو تخريب جدة ومكة ، فأرسل الغوري على الفور قوة بقيادة الأمير حســـين الكردي نائب جدة (والذي كان يباشـــر عملية إعداد الأسطول الكبير بالسويس)[٢٣]. فما كاد حسين الكردي يصل إلى جدة حتى قام بتقوية أســـوارها ودفاعاتها مرة أخرى ، وجمع بعض الأموال من أهالي جدة لمعاونته في مهمته واضطر إلى مصادرة أموال بعض تجار جدة ـــ كما ألزم الناس للعمل في تحصيناته لجدة ، وتم بناء البرج السابع من أبراج تحصينات السور الواقع في جهة البحر ، وعلى الرغم من هذه الظروف الحربية الاســـتثنائية التي تبيح للقائد جمع الأموال من المواطنين وتجنيدهم في العمل للدفاع عن أوطانهم ، إلا أنه لم يسلم من انتقاد بعض المؤرخين المعاصرين له وسخطهم عليه [٢٤].

وبينما كانت الحملة البرتغالية في طريقها إلى البحر الأحمر لتحقيق غرضـــها وصـــلها خبر بقيام ثورة في جزيرة (هرمز) التي ســـيطر البرتغاليون عليها في مدخل الخليج العربي ، فاتجه البوكيرك إليها) ، وما أن سيطر على الأوضاع فيها حتى اشتد به المرض وعاد إلى مركزه في الهند حيث توفى بعد وصوله مباشرة ، ونجت (جدة و مكة) من التخريب المنتظر مرة أخرى .

---

(٢٤) أنظر : قطب الدين النهروالى (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) صـ ١٦٥.١٦٧ .

وبعد أن أتمت القوات المصرية استعدادها البحري في السويس وجدة خرجت من الشواطئ المصرية وقامت بعملية تحصينات في مواني البحر الأحمر وخاصة في الثغور اليمنية التي كانت في حاجة إلى تحصينات على غرار التحصينات التي أقيمت في جدة من قبل وذلك لإغلاق البحر الأحمر أمام البرتغاليين وتأمين خط الرجعة للقوات المصرية .

ولكن مما يؤسف له أن (حسين الكردي) اشتبك بقواته مع أمراء اليمن عندما رفضوا إقامة هذه التحصينات وقام المصريون بمهاجمة السواحل اليمنية بالقوة ، وتطور الصراع حتى انتهى بقتل السلطان (عامر بن عبد الوهاب) سلطان صنعاء وأحتل المصريون صنعاء ، واضطرت القوات المصرية في بادئ الأمر لخوض الحرب مع اليمنيين للدفاع عن أنفسهم أثناء إقامة التحصينات ، ولكن هذه المعارك تطورت تطوراً خطيراً أبعد الحملة عن هدفها الأصلي ، وبذلك يصح أن يقال عن هذه الحملة بأنها غرقت في اليمن ومشاكله قبل الوصول إلى مياه الهند .

وفى غضون ذلك تنبه العثمانيون لضعف المماليك (الذين وقع على كاهلهم الدفاع عن البحر الأحمر ضد البرتغاليين في الجنوب ومحاربة فرسان القديس يوحنا [٢٥] في البحر المتوسط في الشمال)

(٢٥)كان فرسان القديس يوحنا يسيطرون على بعض الجزر في شرقي البحر المتوسط ويتمركزون في جزيرة (رو دس) وكانوا يشنون الهجمات المتوالية على الموانى الإسلامية وخاصة المصرية ، وقاموا بكثير من أعمال القرصنة البحرية في مواجهة السفن الإسلامية ، وكانوا يعدون هذه الأعمال العدوانية من قبيل الجهاد الديني وظلوا في جزيرة رو دس حتى أجلاهم السلطان سليمان القانوني عنها سنة ١٥٢٢م إلى غرب البحر المتوسط وتمركزوا في جزيرة مالطة إلى أن قضى على نفوذهم بونابرت وهو في طريقه إلى مصر سنة ١٧٩٨م .

أنظر: الهجمات المتكررة لهؤلاء القراصنة على ثغور مصر في كتاب ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ــ ج ٤ صــ ١٤٥، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٠ .

(٢٦) أنظر : ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور (ج ٤ ص ٣٥٩) .

فبدأ العثمانيون يتدخلون في المنطقة لملء الفراغ العسكري الذي أصبح واضحاً بعد أن فشل المماليك أمام الزحف البرتغالي أكثر من مرة ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام البرتغاليين لتحقيق هدفهم نحو الأراضي المقدسة الإسلامية فبدأ العثمانيون يتدخلون وكان تدخلهم سلمياً على نحو ما رأينا بحجة مساعدة المماليك في حربهم ضد البرتغاليين ، وتأكد لهم عن قرب ضعف القوة المملوكية فأعدوا أنفسهم لملء هذا الفراغ .

وفى صفحات ابن أياس إشارات كثيرة إلى الآثار السيئة التي نجمت عن استيلاء البرتغاليين على التجارة الشرقية وأعمالهم التخريبية ضد السفن والثغور الإسلامية فيقول ابن اياس في حوادث المحرم من سنة ٩٢٠ هـ ما نصه : وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانسحاب والتعطيل فإن بندر الإسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع (البضائع) في السنة الخالية ، وبندر (جدة) خراب بسبب تعبث الإفرنج (البرتغاليين) على التجار في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر (جدة) نحوا من ست سنوات وكذلك جهة دمياط[٢٦].

بذلك انهارت إمكانيات مصر الاقتصادية وألقت هذه الحالة الاقتصادية السيئة بظلها على الأوضاع العسكرية المصرية ، فضعفت قوة المماليك العسكرية وتدهورت قدرات مصر الدفاعية ـ الأمر الذي أغرى البرتغاليين والعثمانيين بالوثوب على أملاكها ، وقام سباق رهيب بين البرتغاليين من الجنوب والعثمانيين من الشمال لملء هذا الفراغ ، وحاولت كل من الدولتين أن ترث الدولة المملوكية المتهالكة .

وبينما كان البرتغاليون يعملون المرة تلو المرة على التوغل في البحر الأحمر حتى هاجموا جدة في عام ١٥١٧م ، كان العثمانيون قد نجحوا في خلال عام ١٥١٦م وأوائل عام ١٥١٧م (٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ) في الاستيلاء على أملاك الدولة المملوكية في الشام ومصر .

ولم يتمكن الغوري من الانتصـــار في لقائـه مع العثمـانيين في موقعـه (مرج دابق ١٥١٦م) لأنه كان مشـغولاً بالدفاع عن البحر الأحمر ضـد الزحف البرتغالي ، وكانت قواته المتباغضـة موزعة في كثير من ثغوره وخاصـة في ثغور اليمن والحجاز ، كما كان يقاوم ضربات فرسان القديس يوحنا المتكررة في البحر المتوسط.

وعندما دخل السلطان سليم القاهرة في المحرم من سنة ٩٢٣ هـــ وتغلب على مقاومة طومانباي أخر سلاطين المماليك وشنقه على باب زويلة بالقاهرة في ٢١ من ربيع الأول ٩٢٣هـــ (١٣ أبريل ١٥١٧م) [٢٧] أسدل الستار على فترة من أهم فترات التاريخ الإســلامي كانت مليئة بالجهاد والنضـــال كتب للمماليك فيها النصـــر على الصليبيين والمغول ، ولكنهم أخفقوا في رد عادية البرتغاليين والعثمانيين .

<u>انضمام الحجاز إلى العثمانيين :</u>

لم تكن الدولـة العثمـانيـة منعزلـة تمام الانعزال عن الحجاز ، فإن حجاجها كانوا يأتون كل عام في موســم الحج إلى الحرمين الشــريفين ، وكان ســلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا إلى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على إبلاغ شريف مكة بانتصـاراتهم في أوروبا ، وعندما فتح السـلطان محمد الفاتح القسـطنطينية سـنة ١٤٥٣م أرسـل إلى شـريف مكة رسـالة بهذه المناسـبة يبشـره فيها بهذا الفتح ويطلب منه الدعاء ، كما أرســـل إليه بعض الهدايا من غنائم الفتح [٢٨] ، وفى عام ٨٨٦هـ أدى السلطان بايزيد الثاني (والد سليم فاتح مصر) فريضة الحج وتوثقت عرى المودة بينه وبين شريف مكة .

---

(٢٧) محمد فريد "تاريخ الدولة العلية العثمانية" طبعة بولاق . القاهرة ص ٧٥ . ٧٦ .

وكان العثمانيون يطمحون إلى مد نفوذهم إلى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم إلى أن ينعتوا بلقب (خادم الحرمين الشريفين) ، ذلك اللقب الذي اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم ، وذلك لإعلاء مكانتهم في العالم الإسلامي ، وقد عبر السلطان سليم عن هذا الأمل عقب انتصاره في معركة مرج دابق على المماليك سنة ٩٢٢هـ ودخوله حلب ، فقد حضر صلاة الجمعة في مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب "خادم الحرمين الشريفين" وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له ، وأظهر الفرح والسرور بتلقيبه بهذا اللقب وخلع على الخطيب خلعاً متعددة وأحسن إليه إحساناً زائداً . [٢٩]

وعندما أتم السلطان سليم الاستيلاء على مصر أظهر حسن نواياه تجاه جماعة من الحجازيين كانوا بمصر إبان غزوها ، منهم من مكة الخطيب محيى الدين العراقي الذي أنعم عليه بالإنعام الجزيل ، واستقبل قاضي قضاة مكة صلاح الدين محمد بن ظهيرة وكان من المعتقلين في مصر [٣٠] ، فأكرمه وعظمه وخلع عليه وأحسن إليه . ولما أراد سليم أن يجهز جيشاً إلى الحجاز اتصل قاضي قضاة مكة صلاح الدين بن ظهيرة برجال السلطان سليم وأقنعهم بعدم إرسال هذا الجيش وأن الرأي عنده "إرسال مكتوب إلى (شريف مكة)

---

(٢٨) أنظر ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) ص ٢٦-٢٧ .

(٢٩) أنظر : قطب الدين النهروالى (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) ص ١٨٧ . ١٨٨ .

(٣٠) كان السلطان الغوري قد طلب من قاضي قضاة مكة ابن ظهيرة عشرة آلاف دينار فعجز القاضي عن سدادها فأمر الغوري بالقبض عليه وحمله إلى مصر واعتقله بها ، وعقب هزيمة الغوري في موقعه مرج دابق أخرجه طومانباي من السجن وظل في مصر حتى قابل السلطان سليم .

أنظر : أحمد بن زيني دحلان (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) ص ٥٠ .

(٣١) المصدر السابق نفس المكان .

ولا تبدو منه مخالفة أبداً" ولا يحتاج الأمر إلى تجهيز جيش ، فأخذ السلطان سليم برأيه ، وكتب القاضي صلاح الدين رسالة من طرفه إلى الشريف يعرفه فيها بما وقع ويطلب منه إرسال ابنه محمد أبو نمي إلى السلطان سليم[٣١]

ونظر شريف مكة إلى الظروف والملابسات الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز إبان الزحف العثماني بعين الخوف من المجهول .

فمن ناحية : كان الحجاز يمر بظروف حربية صعبة حيث تعرضت موانيه وعلى الأخص (جدة) لكثير من هجمات البرتغاليين الشرسة التي سبق أن أشرنا إليها ، وهدد البرتغاليون بمهاجمة الأراضي المقدسة الإسلامية والعبث بمقدسات المسلمين ، ولم تكن لدى شريف مكة القوات والعتاد التي يستطيع بها صد المعتدين البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى : فقد كان الحجاز يعتمد من الناحية الاقتصادية على المخصصات الثابتة التي كانت تأتيه من مصر نظراً لندرة الزراعة به وقلة موارده ، فإن دولة المماليك ومن سبقها من الدول الإسلامية التي ضمت الحجاز إليها قد عملت كل منهما على رصد المخصصات وحبس الأوقاف بالديار المصرية على سكان الحرمين الشريفين ، فكان الحجاز بذلك يتلقى من مصر سنوياً كل ما يحتاجه من غلال إلى جانب مرتبات الأشراف والعاملين على خدمة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والتي كانت ترسل سنوياً صحبة أمير الحج المصري .

هذه الظروف الحربية والاقتصادية التي كان يعشها الحجاز إبان الزحف العثماني هي التي أملت على شريف مكة الشريف بركات قبول السيادة العثمانية ، ورد على رسالة ابن ظهيرة بإرسال وفد برئاسة ابنه أبو نمى لتقديم الولاء والاستعداد بدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وذلك لكي يضمن استمرار تدفق التموين من مصر ، ويضمن وجود قوة إسلامية كبرى تقف أمام الزحف البرتغالي على الأراضي المقدسة الإسلامية .

واستقبل السلطان سليم وفد الشريف بركات في القاهرة في ١٦ من جمادى الثاني ٩٢٣هـ/٦ يوليو ١٥١٧م استقبالا حافلاً وقدم أبو نمى إلى سليم بعض الهدايا وبعض الآثار النبوية الشريفة التي كانت موجودة في مكة والمدينة ثم سلمه مفاتيح الحرمين ، وهكذا تم إقرار شريف مكة بقبول السيادة العثمانية ، ومنحه سليم تفويضاً بحكم "مكة المشرفة المنورة المطهرة ونواحيها وضواحيها وتوابعها ولواحقها المعطرات ولكل موضع كان الجناب الكريم حاكما وضابطاً فيه بمراسيم السلاطين القديمة [٣٢]. ثم أمره بقتل حسين الكردي نائب جدة من طرف المماليك .

وعقب عودة وفد الشريف إلى مكة قرأ التفويض على الأهالي وأمر الشريف بالقبض على حسين الكردي فأخذ مقيداً إلى جدة وقتلوه غرقاً في ميناء جدة في تلك المياه التي سبق له أن دافع عنها ضد الغزو البرتغالي ، وهكذا شاء الله لهذا المجاهد أن يختفي في البحر الذي شهد نضاله وكفاحه عن شواطئه ضد البغاة من الأعراب وضد أعداء الإسلام منذ عام ٩١١هـ/١٥٠٥م حتى فز بالشهادة على يد الذين طعنوا الدولة المملوكية في ظهرها سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧ م .

وبذلك دخل الحجاز تحت السيادة العثمانية دخولاً سلمياً وكان سلطان شريف مكة يمتد إلى جميع بلاد الحجاز ، ومن مهامه الرئيسية العمل على تأمين قوافل الحج الوافدة إلى الحرمين الشريفين من جميع بقاع العالم الإسلامي ، وكان يعتمد في ذلك على صلاته بالقبائل الضاربة في الحجاز والقريبة من طرق قوافل الحج ، كما يعتمد على عصبيته ونفوذه الديني الواسع ، وكان شريف مكة يتمتع في التشريفات العثمانية بأسمى مقام في صف "الصدر الأعظم" في الآستانة والخديوي في مصر .[٣٣]

---

(٣٢) أنظر: نص الرسالة التي أرسلها السلطان سليم للشريف ، وقد ترجمها إلى العربية الدكتور أحمد فؤاد متولي في أحدث كتاب نشر عن "الفتح العثماني للشام ومصر" بالقاهرة سنة ١٩٧٦م ، ويمتاز هذا الكتاب بكثير من الوثائق التي ترجمها المؤلف من التركية إلى العربية وقد استقاها من الأرشيف التركي وغيره من المصادر التركية ، وهو أستاذ في اللغة التركية (أنظر رقم ٣٠ في ملحق الوثائق لنفس الكتاب) .

أما ثغر جدة فإن السلطان سليم ولى عليه نائباً جديداً بعد مقتل نائبه المملوكي ، وهذا النائب الجديد هو التاجر (قاسم الشرواني) الذي كان من تجار مكة وسافر قبل الغزو العثماني إلى مصر وصادف وجوده دخول السلطان سليم مصر ، فاتصل قاسم بالسلطان سليم وتقرب إليه بالخدمة فعينه نائباً لجدة فوصل إليها وباشر مهام منصبه في تلك السنة . (٣٤)

وجعل العثمانيون إمارة جدة تابعة لهم مباشرة يعينون لها نائباً من طرفهم بعيداً عن نفوذ شريف مكة ، وذلك بسبب وضعها الحربي وأهميتها الاقتصادية والإستراتيجية ، وأبطل العثمانيون منصب باشا مكة وتركوا لشريف مكة السلطة على الحجاز ، وجعلوا له استقلالا عن نائب جدة إلا في الحالات الضرورية التي يلزم عليه أن يتعاون معه على استتباب الأمن في ربوع الحجاز لتأمين سير قوافل الحج إلى الحرمين الشريفين .

وقررت السلطات العثمانية لشريف مكة أن يأخذ نصف محصول ميناء جدة كل عام ، ومن ثم فقد تسبب هذا الأمر في إثارة كثير من المشاحنات بين نائب جدة وشريف مكة ولم تهدأ هذه الحوادث بينهما طوال العصر العثماني ، كما تسببت ثنائية الحكم هذه في خلق جو من الاضطراب والفتن والفوضى لا في جدة ومكة فحسب بل في الحجاز كله. (٣٥)

---

(٣٣) أنظر : ساطع الحصري "البلاد العربية والدولة العثمانية" ص ٢٤١ .

(٣٤) أنظر : قطب الدين النهروالى "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" ص ١٩١ ، وأنظر أيضا "أحمد بن زيني دحلان" خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص ٥١.

(٣٥) أنظر على سبيل المثال ما حدث من حروب بين شريف مكة ووالى جدة فى سنة ١٠٧٩هـ وسنة ١١٨٤هـ وما بعدها في كتاب (خلاصة الكلام لأحمد بن زيني دحلان).

وهكذا حظيت الدولة العثمانية بشـــرف حماية الحرمين الشـــريفين ، وأضـــاف ســـلاطين آل عثمان إلى ألقابهم لقب "خادم الحرمين الشـــريفين" وظل هذا اللقب من الأمور التي يحافظ عليها ســـلاطين العثمانيين ، وحافظوا من أجله على بقاء الحرمين الشـــريفين في حوزتهم ، كما ورثت الدولة العثمانية أيضـــاً نفوذ المماليك في البحر الأحمر بعد الاستيلاء على مصر وضم الحجاز ، وقابلت في الوقت نفسه مشاكل البحر الأحمر التي كانت بين البرتغاليين والمماليك حول السيادة عليه والسيطرة على التجارة الشرقية ، وبرزت أمام العثمانيين بمجرد ظهورهم في المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر وأصبحت إحدى القضايا الملحة التي تحتاج إلى عمل حربي حاسم منهم .

وقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بســـرعتها وتلاحقها صدق ذلك ، فقبل أن يصل نائب جدة الجديد (قاسم الشرواني) لمباشرة مهام منصـــبه كان البرتغاليون قد أعدوا هجوماً على جدة في عام ١٥١٧م ، فقد أرســـلوا حملة بقيادة نائب الملك في الهند "لوبو ســـوريز" الذي تولى بعد البوكيرك وكانت هذه الحملة تتكون من أربعين سفينة ومن ألفين من الجنود المسلحين ، وهدف هذه الحملة هو الهجوم على جدة وتدميرها والقضـاء على الأسـطول المملوكي في البحر الأحمر ، وإقامة اتصال مباشر مع الحبشة .

البرتغاليون في مواجهة العثمانيين :

ونظراً لأن هدف هذه الحملة هو جدة فإنها لم تتعرض لعدن وخاصـة أن أميرها (مرجان) قد أمد الحملة البرتغالية بالمؤن اللازمة لها وببعض المرشـــدين من بحارة اليمن لإرشـــادها داخل البحر الأحمر للوصـــول إلى جدة بعيداً عن مخاطر الشـــعب المرجانية ، وعلى الرغم من ذلك فقد فشل البرتغاليون أمام جدة بسبب مناعة سـورها وقوة اسـتحكاماتها التي أقامها المماليك من قبل ، كما فوجئوا بتغيير السـلطة فواجهوا العثمانيين لأول مرة فكان عليهم أن يعودوا أدراجهم كي يعيدوا حســاباتهم قبل مجابهة العثمانيين ،

وكان (الريس سلمان) العثماني بعد مقتل والى جدة حسين الكردي قد سيطر على الأمور في الثغر ريثما تصله الأوامر العثمانية ووقف أمام الهجوم البرتغالي على جدة ، وعندما أنسحب البرتغاليون واصل مطاردة السفن المرتدة عن جدة إلى جزيرة كمران ، وتمكنت سفنه من الاستيلاء على سفينة برتغالية وأسر بحارتها وإرسالهم إلى استنبول ، ووصلت القوات البرتغالية المرتدة إلى عدن حيث حصلت على الإمدادات اللازمة من أميرها مرجان وعادوا قافلين إلى مركزهم في هرمز [٣٦].

وكانت هذه الحملة التي هددت (جدة) والحرمين الشريفين كفيلة بجعل العثمانيين يفكرون بطريقة جدية في حماية البحر الأحمر والأراضي المقدسة الإسلامية من هجمات البرتغاليين المتكررة والتي أخذت تتركز بصورة ملحة على ميناء جدة الإسلامي ، ولكنهم بعد قليل من وصول نائب جدة الجديد قاموا بسحب الريس سلمان العثماني من جدة ، فعاد إلى القاهرة في شعبان عام ٩٢٣هـ ، ومعه بعض الأسرى من البرتغاليين [٣٧] وكان تعيين التاجر (قاسم الشرواني) في منصب نائب جدة في تلك الفترة الحرجة من تاريخ المدينة معناه الاسترخاء العسكري في جدة وفي البحر الأحمر إلى حين ، وعلي كل فهذا من الأمور التي تحتاج إلى إيضاح وإلقاء الضوء علي هذه الفترة وخاصة أن حالة الاسترخاء هذه ظلت حتى سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م.

ولما كان المماليك قد فشلوا في السيطرة علي (عدن) لجعلها المركز الرئيسي للدفاع عن البحر الأحمر ، لذلك ألقت الظروف بثقلها علي جدة لتكون مركزا للدفاع عن البحر الأحمر في بداية العصر العثماني ، واصبح لزاما علي العثمانيين إعادة تحصينها وتدعيم دفاعاتها التي أقامها حسين الكردي من قبل بما يتلاءم مع الوضع العسكري الجديد.

---

(٣٦) أنظر : د. السيد مصطفى سالم (الفتح العثماني الأول لليمن) ص ١٠٢-١٠٣ .

(٣٧) أنظر : ابن اياس (بدائع الزهور) حوادث شعبان ٩٢٣هـ ج ٥ ص ٢٠٣ .

بيد أن خطوات العثمانيين ظلت بطيئة في هذا المجال حيث لم يبدءوا العمل الجدي إلا في عام ٩٤٥هـ وكان ذلك علي ما يبدو بسبب انشغالهم بكثير من المشاريع الحربية في أوربا وأسيا ، فقد كانوا يعملون علي مد نفوذهم في كثير من المناطق الأوربية منتهزين الحرب الإيطالية التي شغلت أوربا في تلك الأثناء (١٥١٥- ١٥٥٩) كما كانوا يعملون من ناحية أخري علي مد نفوذهم في العراق وفارس لتوحيد العالم الإسلامي .

وفي عام ١٥٢٠م /٩٢٦هـ توفي السلطان سليم وتولي بعده ابنه سليمان القانوني الذي جذبته أحداث أوربا وفارس حتى سنة ١٥٣٨م لكن ظلت مشاريع تامين مدخل البحر الأحمر وتدعيم دفاعاته وأهمها جدة من أهم الأمور التي يجب أن يعمل علي إنجازها العثمانيون .

وعلي الرغم من أن سياسة الحكومة المركزية في اسلامبول كانت تعني الاسترخاء العسكري في جبهة البحر الأحمر إلا أن والي مصر (خاير بك) تولي إرسال المعدات العسكرية والقوات اللازمة لتعزيز حامية جدة ، وذلك عندما كانت تصل الأخبار إلى مصر بتحركات عسكرية للسفن البرتغالية في البحر الأحمر قريبا من ميناء جدة .

ففي شهر جمادى الآخر سنة ٩٢٤هـ أخذ (خاير بك) في تجهيز قوة عسكرية علي وجه السرعة إلى جدة ، وذلك عندما وصلته الأخبار من الحجاز علي يد رسول من شريف مكة بان سفن البرتغاليين" تعبث بالبحر الأحمر" قريبا من ميناء جدة وتقوم بقطع الطريق علي المسافرين مما يتسبب في الإضرار بوضع جدة الاقتصادي ، وذكر الشريف بركات في رسالته إلى (خاير بك) انه يخشى علي ثغر جدة من أن تدهمه السفن البرتغالية علي حين غفلة فبادر خاير بك بالنزول إلى ميدان الرميلة بجانب قلعة القاهرة وقام باستعراض بعض القوات العسكرية ثم عين منها فرقة للسفر علي وجه السرعة لنجدة جدة ،

كانت هذه الفرقة تتكون من نحو ٢٥٠ جنديا من " المماليك الجراكسة وأولاد الناس والمغاربة وغيرهم" وكان من بينهم مجموعة من البحارة المغاربة [٣٨] "ومن الملاحظ الاستعانة دائما بالبحارة المغاربة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين. وذلك بسبب مهارتهم الحربية البرية وقوة الدافع لديهم في مقاومة البرتغاليين والانتقام منهم بعد طردهم للمسلمين من الأندلس .

وفي العام التالي (رمضان ٩٢٥هـ) وصلت الأخبار إلى القاهرة بأن البحرية البرتغالية قامت بتحركات جديدة حول جدة ، فأمر (خاير بك) بإرسال قوة عسكرية أخري إلى جدة مكونة من ٣٠٠ جندي من المماليك والأتراك وعين نائبا جديدا لجدة عندما وصلته الأخبار بأن (قاسم الشرواني) نائب جدة السابق جمع كثيرا من الأموال المحصلة من الميناء واستولي علي كثير من الأسلحة وذهب بها بحرا إلى ميناء (هرمز)والواقع أن ذهاب (قاسم الشرواني) بالأسلحة إلى (هرمز) يلقي كثيرا من الضوء علي موقف أهل الحجاز من الصراع في الخليج العربي ، وعلي موقف الدولة العثمانيين بعد ذلك عندما أمرت بالقبض عليه وحبسه وخلعه من منصبه وهذا الموقف من الدولة يتمشى مع موقفها السلبي من البرتغاليين في الخليج ، ويؤيد ما ذكرناه بأن الدولة جعلت في جبهة البحر الأحمر والخليج استرخاء عسكريا بسبب انشغالها في أوربا والواقع أن (قاسم الشرواني) لم يهرب وإنما ذهب لمعاونة هرمز التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة أمام وطأة الزحف البرتغالي ، والسلطات العثمانية هي التي أشاعت عملية هروبه وسجل ذلك المؤرخون المعاصرون دون تحر الحقائق .

---

(٣٨) أنظر : ابن اياس (بدائع الزهور) ج ٥ ص ٢٦٢ .

والدليل علي براءته من تهمة السرقة والخيانة أن السلطات العثمانية تركته يعيش أمنا في القاهرة بعد أن أفرجت عنه ، فيذكر ابن اياس في حوادث شهر جمادى الأولى سنة ٩٢٨ هـ إن قاسم الشرواني اشتري قاعات كانت علي بركة الرطلي ملك للمقر الشهابي احمد الجيعان الذي سجنه خاير بك بالعرقانة ليفتدي نفسه من السجن ويدفع ما طلبه منه خاير بك (ابن إياس ، ج ٥ ـ ص ٤٤٨) تحقيق محمد مصطفي).

حسين الرومي نائبا لجدة :

حسين الرومي تركي حضر إلى مصر مع السلطان سليم ، ونسبة الرومي تطلقها المصادر التاريخية في الفترة العثمانية على الأتراك باعتبار أنهم يأتون من بلاد الروم التي كانت ملكا للدولة الرومانية قبل مجيء الأتراك إليها وانتشار الإسلام بها ،

وكان اسم نائب جدة الجديد هو (حسين الكخيا أغات الكمولية) أو ، (حسين الرومي) كما تسميه بعض المراجع ، وقد أمره خاير بك بأن يتوجه علي راس القوة العسكرية الجديدة صحبة قافلة الحج المصرية ، كما اصدر خاير بك إليه أمرا بان يضم إليه ولاية السواحل اليمنية إلى جانب ولاية جدة .

ويبدو أن نائب جدة قاسم الشرواني ، قد قبضت عليه القوات العثمانية وأرسلته إلى القاهرة حيث سجنه خاير بك حتى تري فيه سلطات اسلامبول رأيها ، فأرسل السلطان سليم باستدعائه إلى اسلامبول في رجب سنة ٩٢٦هـ [٣٩] .

ولم تكد تنتهي فترة وجيزة من إرسال نائب جدة (حسين الرومي) حتى شب خلاف بينه وبين شريف مكة الشريف بركات أدى إلى نشوب معركة حربية بين القوات العثمانية المرابطة بجدة بقيادة حسين الرومي وبين الشريف بركات وقوته تسببت في وقوع كثير من القتلى من جنود الشريف بركات كما خرج نائب جدة جريحا من المعركة. [٤٠] .

وتعتبر تولية [٤١] (حسين الرومي) نائبا علي جدة بداية لمرحلة جديدة في سياسة العثمانيين في البحر الأحمر ، وذلك لأنهم جعلوا سلطته تمتد إلى اليمن إلى جانب نيابته لجدة ، ومعني هذا بداية العمل الجدي في مدخل البحر الأحمر وعلي السواحل اليمنية ، وترتب علي هذا أن زحف حسين الرومي من جدة إلى اليمن ولكن لم يسلم له المماليك بسهولة وعارضه اسكندر الجركسي ، وفي غضون ذلك وصل إلى (حسين الرومي) في اليمن خبر وفاة السلطان سليم فرجع إلى قاعدته (جدة) من غير قتال حتى يتضح الموقف في عهد السلطان الجديد [٤٢] ،

وفي غضون ذلك ظهر (سلمان الريس) في سماء جدة من جديد فقد فر من مصر بعد عصيان واليها (احمد باشا) واتصل (بحسين الرومي) في جدة وحسن إليه الذهاب إلى اليمن من جديد ولما توجه إلى اليمن أحرز حسين الرومي معه بعض الانتصارات والتف اليمنيون حول حسين الرومي [٤٣] وخاف سلمان علي نفسه وعاد إلى مصر مرة أخرى وأغرى واليها (إبراهيم باشا) بإرسال عساكر معه ليدفع بها البرتغاليين كما ادعى فجهزه بنحو أربعة آلاف مقاتل توجه بهم إلى الحجاز أولا .

ومما هو جدير بالذكر أن قوات (سلمان) هذه كانت مصدر شقاء لأهل جدة ومكة لأنهم كانوا في مجموعهم من الصناع والإسكافية وقطاع الطرق والجهلة وغيرهم من أراذل الناس ،

---

(٣٩) المصدر السابق (ج٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٤٢).

(٤٠) المصدر السابق (ج٥ ص ٣٣٠) .

(٤١) كان حسين الرمي هذا من الأمراء الذين وردوا مع السلطان سليم إلى مصر وكانت له وجاهة عند خاير بك والي مصر فولاه نيابة جدة وأضاف إليه اليمن .

(٤٢) أنظر : قطب الدين النهروالي (البرق اليماني) ص ٣٤ .

(٤٣) لم تطل الأمور بحسين الرومي في اليمن فلم يزل أن توفي بعد مرض طويل في سنة ٩٣٢هـ ودفن باليمن (أنظر المصدر السابق ـ ص ٤٢).

(٤٤) المصدر السابق ص ٤٢ ـ ٤٤

فلما وصل سلمان إلى جدة سنة ٩٣٢هـ بهذه القوات عاثوا فيها فسادا وساروا يتعرضون للعرب وينهبون الأسواق فانقطعت الميرة عن مكة فحصل فيها قحط شديد وغلاء عظيم ، بحيث صار ذلك تاريخا عند أهل جدة ومكة فكانوا يقولون عن هذه السنة : " سنة سلمان " (٤٤) وامتدت يد سلمان إلى محصول جدة فأخذه كله واستولى عليه لنفسه وكان في هذه السنة ٩٣٢هـ تسعون ألف دينار ذهبا ، ووافقه علي ذلك نائب جدة الجديد وهو (علي بك جاويش) وكان هذا المحصول نصفه للسلطان ونصفه لشريف مكة .

وفي غضون ذلك أضحت جدة المركز الرئيسي لمحاولات العثمانيين في فرض نفوذهم الفعلي في اليمن لتامين مدخل البحر الأحمر .

وفي سنة ٩٣١هـ /١٥٢٤ م عين العثمانيين (سليمان باشا الخادم)(٤٥) واليا علي مصر ، فأمره السلطان سليمان سنة ٩٣٧هـ ببناء ثمانين سفينة في السويس من مختلف الأنواع والأحجام وزوده بالأخشاب والمواد اللازمة لبناء السفن من إسلامبول ، وقام بحملته في ١٥من المحرم ٩٤٥هـ = ١٥٣٨م .

ويذكر أنجلو بيس في كتابه عن جدة سالف الذكر : أن مجموعة من الإيطاليين من جمهورية البندقية يبلغ عددهم ١٧٧ أسيرا أجبروا على العمل في الأسطول التركي الذي احتشد في السويس لمهاجمة البرتغاليين في الهند ، وقد احتفظ أحدهم وهو مجهول الاسم بمذكرات له عن هذه الفترة سجل فيها ملاحظاته عن الأماكن التي زارها والأحداث التي يجد نفسه داخلا فيها

---

(٤٥) كان سليمان الخادم أحد مماليك السلطان سليم الأول ومن المقربين إليه وظل والياً على مصر منذ ٩٣١هـ حتى غادرها إلى العراق للاشتراك في فتح بغداد سنة ١٥٣٤م/٩٤١هـ ، ثم بدأت ولايته الثانية لمصر سنة ٩٤٣هـ ، واستمر حتى خرج منها على رأس حملة بحرية لفتح اليمن سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ومنها إلى الهند .

(٤٦) عبد القادر بن فرج (السلاح والعدة) ص ٢٥ ويذكر صاحب السلاح والعدة أن إسكندر هذا حكم بجدة حكماً بليغاً أرضى الجميع وكانت علاقته بشريف مكة طيبة ، وله إصلاحات بجدة اجتماعية وعسكرية وبالمشاعر المقدسة .

وهي التي ينقل عنها أنجلو بيس ، فيقول عن جدة :

" في يوم ١٠من مارس ١٥٣٨م وصـــلنـا إلى ميناء في مكان يدعى (خليج الكورا أو شرم أبحر) في منطقة صحراوية ، وفي يوم ١١مايو غادرناه واتجهنا جنوبا بحوالي ٣٠ ميلا إلى أرض تدعى جدة ، وهو ميناء وصـول جميع التوابل التي تصـل من الهند وكلكتا ، ومع وجود كثير من الصخور إلا أنه ميناء جيد ، هنا أخذنا الكثير من المشـروبات والمرطبات ، ولكن لا توجد هنا مياه منعشــة (عذبة) ما عدا بعض الصـهاريج المملوءة بمياه الأمطار ، وهنا توجد حركة تجارية واسـعة ، في هذا المكان يوجد التمر وعلى البر يوجد مسجد يسميه المراكشيين قبر حواء ،

والرجال في جدة يسـيرون بأجسـاد عارية تقريبا وهم نحاف هزيلي الأجسـام وغير جذابين ، ولكن عندهم الكثير من السـمك الذي يصـيده الرجال من البحر عندما يهبون لصــيده في جماعات كل ثلاثة أو أربعة في جماعة على بعد ٦أقدام مربوطين معا ويذهبوا على بعد ٨ أو عشرة أميال من الشاطئ لصيد السمك ويجلسوا على حافة المركب مسـتخدمين قضـيبا من الخشـب كمجداف ، وهم يذهبون تحت أي مناخ ومن هذا المكان كنا نحضر الماء ومكثنا هنا أربعة أيام "

قام ســـليمان الخادم بحملته إلى اليمن ولم تذكر المراجع العربية خبر من كان فيها من الإيطاليين ، الذين أشـرنا إليهم سـلفا ، وقد تمكنت هذه الحملة من السـيطرة الكاملـة علي مواني اليمن من جيزان شـــمـالا حتى عدن جنوبا ، أمـا جهـات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت حكم الزيدية بزعامة الإمام (شـرف الدين). وهو الإمام الذي أخذ البيعة منذ عام ٩١٢ هـ .

بيد أن ســـليمان الخادم فشـــل في حملته على الهند ولم يســـتطع أن يجابه القوات البرتغالية هناك ، وبعد فشله في الهند عاد منها وتلكأ في طريق عودته إلى إسلامبول خوفاً من عواقب الأمور المرتقبة ومحاولة منه لتغطية فشله لدي سلطات الباب العالي فبقى في الحجاز أكثر من شهرين (من ذي القعدة ٩٤٥ حتى المحرم سنة ٩٤٦هـ) ، ثم قضى نحو خمسة أشهر أخرى في مصر ، عمل خلالها على نشر الدعاية الكاذبة حول انتصاره المزعوم على البرتغاليين .

الأمير اسكندر نائبا لجدة :

وقد بقيت جدة في هذه الفترة وما بعدها مهملة بدون نائب حتى سنة ٩٤٦هـ ، وفى هذه الســنة عينت الســلطات العثمانية نائباً لجدة يدعى (إســكندر) واســتمر في منصبه حتى سنة ٩٥١هـــ .[٤٦]) ويذكر صاحب السلاح والعدة أن اسكندر هذا " حكم بجدة حكما صالحا ضبط البلد وحكم فيها حكما بليغا بحيث أنه أرضى مولانا المرحوم أبانمي وأرضــى الســلطنة بحســن ســيرته والصــدق في ســريرته وأظهر لمولانا المرحوم السيد أبا نمي رحمه الله تعالى في البلد شيئا كان يأخذه المتقدمون من غير علمه " ، والخلاصــة : كانت علاقته بشـريف مكة طيبة ، لدرجة أن شـريف مكة أقامه ناظرا من قبله وله إصــلاحات بجدة اجتماعية منها : أنه أغرق حرمة إســمها خديجة الدهلكية وعسكرية وبالمشاعر المقدسة

وبعد فشل حملة سليمان باشا الخادم على الهند لم يفكر العثمانيون في سياسة هجومية ضد البرتغاليين وظلوا ينهجون سياسة دفاعية قوامها السيطرة على البحر الأحمر وإغلاقه . كما ترتب على هذه الهزيمة أيضاً أن قام البرتغاليون بشن هجوم كبير في سنة ٩٤٨هـ على البحر الأحمر هدفه تحطيم الأسطول العثماني في ميناء السويس وكانت هذه الحملة بقيادة نائب الملك في الهند وبلغ عد سفنها أكثر من ثمانين سفينة ،

وقام البرتغاليون بمهاجمة ميناء سواكن وجزر دهك وخربوها وآسرو بعض سكانها ، كما هاجموا أيضاً بعض السفن الشراعية الصغيرة في القصير والطور غير أنهم لم يجرؤا على مهاجمة الأسطول العثماني في السويس ولاذوا بالفرار(٤٧) عائدين إلى المواني الحبشية التي أضحت قاعدة لهم .

وقد تعـرض ميناء جدة لعملية تخريب أثناء مرور الحملة البرتغالية في طريقها إلى الســويس ، وتنبه شــريف مكة (أبو نمى) للخطر المحدق بجدة في غيبة نائبها فترك مكة في موسم الحج وتوجه إلى جدة في جيش كبير جمعه من أهل مكة والقبائل المجاورة لها وأمر المنادى بالنداء في مكة وضـــواحيها"من صـــحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة[٤٨] .

واجتهد الشــريف أبو نمى في تلك الفترة الحرجة بجمع المؤن لقواته من جميع الأطراف فكانوا يحضــــرون أنواع الطعام إلى جدة بأغلى ثمن وذلك لأن جدة مواردها كانت تأتى من البحر فلما حاصرها الأسطول البرتغالي اعتمد الشريف في تزويد قواته بها على المنـاطق الداخلية الفقيرة ، وعزت الأقوات بها وغلا ثمنها وفرغت الحبوب ، فأقبلوا على نحر الإبل فكانوا ينحرون لكل مائة نفس بدنه فاستمر ذلك مدة ، وتحمس الشـــريف لعملية الاســـتمرار في تزويد قواته حتى قال "أني نويت أن أنحر ما أملكه ويملكه أولادي وأحفادي فإذا نفذت الإبل نحرت الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله "[٤٩] .

ورفض الشريف أن يغادر جدة في هذه الظروف لمقابلة أمراء قوافل الحج على العادة ، وكلف ابنه أحمد أن يقابل أمراء الحج ويلبس الخلع الواردة إليه ويحج بالناس على عادة أجداده نيابة عن والده ،

---

(٤٧) أنظر : د.السيد مصطفى سالم (الفتح العثماني الأول لليمن) ٣٩٨ . ٣٩٩ .

(٤٨) أنظر : أحمد بن زيني دحلان (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) ص ٥٣ .

(٤٩) المصدر السابق . نفس المكان .

وبعد إتمام مناسك الحج توجه إليه أمراء الحج بجدة لإلباسه الخلع فوجدوه شاكي السلاح لابساً درعه على هيئة المقاتل وأمر الشريف بأن تضرب المدفعية تحية لقدوم أمراء الحج عليه ، وكان من نتيجة هذا الموقف الجاد لشريف مكة في الاهتمام بالدفاع عن جدة أن أمر له السلطان بنصف "معلوم جدة" أي محصول مينائها وذلك بعد أن تعدى عليه نواب جدة في بعض السنين ، وأنعم عليه بكثير من المنح والهدايا .

وترتب على هذا الهجوم البرتغالي الشامل للبحر الأحمر أن فكر العثمانيون جدياً في إغلاقه في وجه البرتغاليين وقطع الاتصال بين البرتغاليين والأحباش ذلك الاتصال الذي أفادت منه البحرية البرتغالية حيث ضمنت مرافئ آمنة في البحر وضمنت تزويدا لسفنها وجنودها ، ولعبت الوشيجة الدينية بين الأحباش والبرتغاليين دوراً هاماً في توطيد العلاقات الودية بين الطرفين حتى صارت تحالفاً يضر بأوضاع البحر الأحمر الأمنية بالنسبة للمسلمين .

ونشطت السفن العثمانية في حصار السواحل الحبشية وأخذت تطوف في دوريات منتظمة في البحر الأحمر حتى جعلت عملية الاتصال بين الأحباش والبرتغاليين نوعاً من المغامرة ، كما بدأ العثمانيون يدعمون قواعدهم البحرية في اليمن [٥٠].

---

(٥٠) أنظر : د.السيد مصطفى سالم (الفتح العثماني الأول لليمن) ص٤٠٠ .

(٥١) أنظر : قطب الدين النهروالى (البرق اليماني في الفتح العثماني) ص ٢٣٣ .

(٥٢) انظر : عبد القادر بن محمد الجزيري (دور الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة) مصدر سبق ذكره ـــ ص ٤٠١ ـ ٤١٦ .

وهكذا يمكن القول بأنه إذا كانت حملة (لوبو سوريز) على جدة عام ٩٢٣هـ /١٥١٧م هي التي وجهت أنظار العثمانيين إلى الخطر البرتغالي بعد فتحهم لمصر مباشرة ـ فإن حملة سـنة ٩٤٨هـــــ/١٥٤١م البرتغالية هي التي دفعت العثمانيين إلى التفكير في إغلاق البحر الأحمر أمام البحرية الأوروبية بصــفة عامة والبحرية البرتغالية بصــفة خاصة وقد نجح العثمانيون في هذا المجال إلى حد كبير .

وعنـدمـا تمكن العثمـانيون من إغلاق البحر الأحمر أصــــبحوا يحـافظون على تدعيم وجودهم العسـكري في عدن من آن لآخر فقد أصــبحت عدن مركزاً لخط الدفاع الأول عن الحرمين الشريفين بينما أضحت جدة في هذه الفترة مركزاً لخط الدفاع الثاني عن الحرمين ، وقد اتضح هذا من رسالة وجهها السلطان سليم الثاني (٩٧٤.٩٨٢هـ) إلى قائده سنان باشا الذي وجهه لإعادة فتح اليمن في سنة ١٥٦٩م/٩٧٧هـــ ، وقد جاء في هذه الرسالة "إن استردادنا لمملكة اليمن وإن كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس ، ولكن جل قصدنا من ذلك إنما هو حفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين على الكفار الملاعين " . [٥١]

إضافة جدة إلى ولاية الحبش :

واصل العثمانيون تدعيم وجودهم العسكري على الشاطئ الأفريقي المقابل لجدة ولسـواحل اليمن ، واسـتمروا في هذا الصـدد حتى هاجموا الحبشـة في عقر دارها بعد نجاح عملية الحصـــار البحري عليها وذلك لكي يكملوا جهودهم البحرية بجهود حربية داخل الحبشة نفسها لمطاردة البرتغاليين هناك .

وكان نفوذ العثمانيين منذ البداية لا يتعدى حدود نيابة (ســـواكن) وزيلع الذين ورثهما العثمانيون عن المماليك بعد اســـتيلائهم على مصــــر ، وكان (أزدمر باشـــا) أول من لمس أهمية الســواحل الحبشــية ، بالنســبة للسـيطرة على البحر الأحمر وذلك بفضـل الفترة التي قضاها واليا على اليمن من سنة ٩٥٦ هــــ حتى عزل سنة ٩٦٢ هــــ= (١٥٤٩ . ١٥٥٥م) .فقدم مشروعا عقب عزله من ولاية اليمن إلى السلطان سليمان القانوني يقضــي بإرســال حملة لتدعيم النفوذ العثماني على ســواحل الحبشــة وتوســيع مداه فأرسل السلطان إلى مصر لتجهيز جيش بها لهذا الغرض .

تكوين ولاية الحبش:

وتم إعداد جيش في مصــر قوامه ثلاثة آلاف جندي زحف به أزدمر باشـــا إلى الحبشـــة عن طريق صـــعيد مصـــر ، ونجح أزدمر في الســيطرة على بعض بلاد النوبة واستولى على بعض الأقاليم الساحلية حول سواكن وأتم بذلك تكوين ماسمي : (ولاية الحبش) وأصـــبح أزدمر باشـــا أول وال لهذه الولاية حتى توفي بها ســـنة ٩٦٧ هـ الموافق (١٥٥٩م) وبعد وفاته نقل جثمانه إلى مصـوع حيث دفن بها ، وبنى له ابنه عثمان قبة على قبره ، وكانت ولاية الحبش من قبله يتوجه إليها الأمناء والولاة من مصر .

ويذكر ســاطع الحصـري أن العثمانيين ربطوا بين جدة وولاية الحبش وأصــبحت لهما إدارة واحدة (البلاد العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩)

نشاط أزدمر باشا :

عمل أزدمر باشـــا منذ تولى على ولاية الحبش الجديدة على أن لا يحدث أي تحالف بين الحبشـــة والبرتغاليين في الهند ، ومن هنا بدأ يراقب مضـــيق باب المندب فاحتل جزيرة مصوع وقرية حرقيقوا المقابلة لها على الساحل الأفريقي والتي تبعد عنها مسافة ساعتين وذلك كعمل وقائي ضد قيام أي تحالف بين الحبشة والبرتغاليين ، ثم زحف أزدمر واستولى على دبارو وبنى بها حصنا أنزل به حامية عثمانية ، وبعد ذلك استولى على أجامي وهاجم دابراداموا شمال غرب اديجرات ، وراقب الرهبان والكنيسة هناك ، ودأب الأتراك العثمانيون منذ عام ٩٦٥هـــــ (١٥٥٧م) حتى عام ٩٧٠هـ (١٥٦٢م) على إرسال حملات من سواكن إلى السواحل الحبشية الأرترية ووضعوا البحر الأحمر بين فكي الكماشة التركية ، إذ أنه أصبح من الطبيعي أن تكون منطقة البحر الأحمر حيث تقع الحبشة موضع صراع بين البرتغاليين والعثمانيين التي تريد كل منهما السـيطرة على الحركة التجارية الآتية من الهند ذات الموارد العظيمة ، والحرص على عدم دخول السـفن البرتغالية داخل البحر الأحمر وتحويله إلى بحيرة إسـلامية مغلقة ، لأن مياهه تطل على الحرمين الشـريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة . (نوال سراج ، جدة في القرن العاشر الهجري ، ص١٢٢-١٢٣) .

وبعد تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية آمنة مغلقة أصبحت قوافل الحج تسلك البحر الأحمر بالسفن الآتية من مصر ومن اليمن ومن الساحل الأفريقي حاملة معها مخصصات الحرمين الشريفين والحجاج إلى بيت الله الحرام دون مخاوف من أي سفن معادية ، وتم منع السفن المسيحية تماما من دخول البحر الأحمر فكان عليها أن تفرغ حمولتها قبل دخولها إلى باب المندب في سفن إسلامية أخرى وهي السفن التي يصرح لها بدخول البحر الأحمر (د . عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص١٩٧-١٩٨) .

ولاية عثمان بن أزدمر:

وقد خلف أزدمر باشـــا في ولاية الحبش هذه ابنه عثمان وقد أرادت الدولة العثمانية بهذا الإجراء الإداري تدعيم متابعة الدوريات البحرية في البحر الأحمر بين الشاطئ العربي والشاطئ الأفريقي لإحكام السيطرة على مياه هذا البحر .(قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ص ١١٩. ١٢٠.)

ولما أصبح طريق البحر الأحمر آمنا على النحو السالف غدت الأقوات المجهزة إلى مكة والمدينة ترد عن طريق البحر ، فيذكر مؤرخ قافلة الحج المصـــرية في هذه الفترة وهو عبد القادر بن محمد الجزيري : أن الأحمال المصـــاحبة لقافلة الحج المصرية كانت تبحر سنة ٩٦٠ هـ من ميناء السويس إلى مينائي جدة وينبع ، ولعل من المفيد أن نذكر أن هذه الأحمال كانت في سنة ٩٥١ هـ نحو ٢٠٣٩ حملا وفي سنة ٩٥٢ هـ كانت ٢٠٣٧ حملا ، ولعل من المفيد أيضا أن نذكر أنواعها فيما يلي :

العدد	النوع
٣٥٠	حملا من الدقيق المحزوم
١٨٠	حملا من البقسمات المنشف وزن كل حمل ٦٥٠رطلا صافيا .
٢٠	حملا من الأرز المحزوم كل حمل اردبان وربع أردب .
٥	أحمال من الكشك كل حمل أربعة أرادب .
٥	أحمال من البرغل كل حمل أربعة أرادب
٥	أحمال من الباسلا كل حمل كضريبة الأرز في المقدار .
١٠	أحمال من الجبن الحالوم ٦٠قنطارا في أقفاص مغلقة .
١١	حملا من العسل (عبارة عن ٦٠ قنطارا في مزاود مغلقة)
٥٠٠	حملا من القفف لقرب السقائين .
٤	شمعات (زنتها أربعة قناطير للكعبة ٢ والحجرة الشريفة ٢)
١	حملا واحدا من السلب الليف يحتاج إليه في مكة .

٥ قناطير من الزيت السكندري معباة في زلعتين .

١٥٠ إردبا من الشعير المغربل .

٣٤٠٠ إردبا من الفول الصحيح المغربل

وكانت هذه الأقوات تقسم أيام المماليك بين جدة وينبع لكل بندر منهما النصف بالسوية ، ولما كان احتياج مكة أكثر من احتياج المدينة وزعت إبان العصر العثماني الثلث لينبع والثلثان لجدة وهذا هو الذي كان معمولاً به سنة ٩٦٠هـ .

وكانت هذه الأقوات تفرغ في ثغر جدة وتوضع في مخازن (حواصل وشون) كانت موجودة في الميناء لوضع هذه الأقوات وغيرها من البضائع لأمراء الحج والتجار بغير أجرة ولكن شريف مكة في العصر العثماني وضع يده على هذه المخازن والشون وبناها بيتا له يسكنه زمن الموسم الهند ، كما يقول الجزيري ، وفى سنة ٩٦٠هـ احتاج أمير الحج إلى موضع بالميناء يضع فيه هذه الأحمال ريثما تنقل بدورها إلى مكة ، فوضعها في فضاء كبير (حوش) خاص بجماعة من الأشراف على مقربة من الميناء بغير أجرة ، وبمضي الزمن تظلم هؤلاء حتى عين لهم أمير الحج أجرة في مقابل ذلك .

وكان على شريف مكة بعد ذلك أن ينقل منها إلى مكة حمولة ألف جمل من غير أجرة وما عدا ذلك إما أن ينقله أمير الحج على جماله إذا حضر ويجهز له شريف مكة جمالاً بالأجرة تنقله إلى مكة ، وأما أمير ينبع فليس عليه سوى إحضار الجمال فقط وأما أجرتها فعلى أمير الحج لكل جمل نصفان من الفضة . [٥٢]

الخلاصة:

نستطيع من هذه الدراسة السريعة أن نبين أهمية هذه المرحلة من تاريخ جدة فيما يلي :

١- في مطلع القرن العاشر الهجري أصبحت جدة غرضاً مستهدفاً للاستعمار البرتغالي بعد أن ضعفت القوى الإسلامية في المنطقة وظهرت أهميتها في الدفاع عن مكة حتى أصبحت رباطاً للمجاهدين وأفتى علماء المسلمين بأنها أهم رباط في الإسلام فقالوا: "ينبغي لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوي الرباط والجهاد عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئاً لدفع أهل الكفر والعناد " وقالوا بأن ثغر جدة أفضل الثغور لإضافته إلى بيت الله الحرام الذي من داخله كان آمناً من كل محظور" ، وأن فضل مرابطيه على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان في سائر الأزمان والدهور ، ويغفر الله للناظر منه مد بصره مما يلي البلد ، ورووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله "يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط رباط جدة . [٥٣]

٢- إن المماليك على أيام السلطان قنصوه الغوري هم أول من رسم سياسة حربية دفاعية لثغر جدة الإسلامي بما يتناسب مع إسلامية مكة في قلوب المسلمين في جميع بقاع العالم الإسلامي ، فحصنوها بكل وسيلة وبنوا سورها العظيم وحفروا حوله خندقاً كبيراً وزودها بالأسلحة والمرابطين للدفاع عنها في أية لحظة طارئة ، فجعلوا منها بذلك مركز الخط الدفاع الثاني بعد عدن للدفاع عن الحرمين الشريفين ضد الهجمات البرتغالية . كما جعلوا منها مركزا دفاعيا متقدما للدفاع عن الأراضي المصرية .

(٥٣) أنظر : عبد القادر بن فرج (السلاح والعدة في تاريخ جدة) ص ٢ ، ٢٨ .

٣- عندما ورث العثمانيون أملاك المماليك في المنطقة سنة ٩٢٣هـ ساروا علي هدي الخطط المملوكة في الدفاع عن البحر الأحمر والاهتمام بثغر جدة بيد أنهم أبطئوا في أعمالهم الحربية حتى عام ١٥٣٨م (٩٤٥هـــــ) ففي تلك الســنة تمت الســيطرة علي ســواحل اليمن وأرســلوا حملة إلي الهند بقيادة سليمان الخادم لم تتمكن من عمل شئ أمام النفوذ البرتغالي الذي تتمكن من تجارة الهند والسيطرة علي البحار الشرقية.

٤- بعد عام ٩٤٥هـــ (١٥٣٨م) كانت سياسة العثمانيين دفاعية في البحر الأحمر ولم يفكروا في اجتيازه إلي الهند لمنافسة النشاط التجاري البرتغالي أو غيره من نشـــاطات الدول الاســتعمارية الغربية الأخرى التي بدأت تظهر في مياه البحار الشرقية.

٥- بيد أنهم استطاعوا (بعد سيطرتهم علي عدن وغيرها من مواني البحر الأحمر) إغلاق البحر الأحمر أمام السفن الاستعمارية وجعلوه بحيرة إسلامية مغلقة بحجة أنه يطل علي الأماكن المقدسة الإسلامية ، فكان علي مثل هذه السفن أن تفرغ حمولتها في مواني اليمن الجنوبية وتقوم الســفن الإســلامية بحمل هذه التجارة إلي داخل البحر الأحمر ، وجعلوا من الســـواحل اليمنية قاعدة لغلق البحر الأحمر فقط ولم تعد نقطة انطلاق لحملات كبيرة إلي الهند أو إلي البحار الشــرقية ، وتجنب البرتغاليون إثارة الدولة العثمانية منذ ظهر نفوذها في البحر الأحمر فأصـــبح نشـــاطهم فيه محدودا خوفا من أن توجه الدولة العثمانية نشـــاطها الحربي إلي الهند ، وخاصـــة أن البرتغاليين كانوا يدركون مدي قوة الدولة العثمانية في ذلك الحين ، وذلك باســـتثناء بعض حملاتهم مثل حملة سنة ٩٤٩هـــ التي كانت ردا علي حملة العثمانيين بقيادة سليمان باشا الخادم سنة ٩٤٥هـ .

٦- **عندما تم للعثمانيين السيطرة علي سواحل الحبشة في البحر الأحمر وأنشئوا منها ولاية كانت تسمي بولاية الجيش قاعدتها سواكن (٩٦٢-٩٦٧هـ) ربطوا بين هذه الولاية وثغر جدة الإسلامي في إدارة واحدة فأضافوا ثغر جدة إلي ولاية الجيش فكأنما كانت مهمة هذه الولاية هي متابعة الدوريات البحرية في البحر الأحمر بين الشاطئ العربي والشاطئ الإفريقي لإحكام السيطرة علي مياه هذا البحر .**